



«سبحان من جعل بيته الحرام مثابة للناس وأمنا، يتربدون إليه ويرجعون عنه، ولا يرون أنهم قضوا منه وطرأ. لما أضاف تعالي ذلك البيت إلى نفسه، ونسبه إليه بقول خليله: {وَطَهِرْ بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ} [الحج: 26]؛ تعلقت قلوب المحبين ببيت محبوبهم، فكلما ذكر لهم البيت الحرام حنوا»[1].

الحج هو شعار الحنيفة ملة إبراهيم عليه السلام، والحنيف هو الحاج إلى بيت الله الحرام، والحنيفية هي الإقبال على الله بالكلية، والإعراض عما سواه، فلا تتحقق الحنيفة إلا بالحج[2]، ولذا فإن «المقصود من الحج: عبادة الله وحده في البقاع التي أمر بعبادته فيها»[3].

فالحج قائم على تحقيق عبادة الله وحده لا شريك له، كما في قوله تعالي: {وَإِذْ بَوَأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا وَطَهِرْ بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكْمَ السُّجُودِ} [الحج: 26].

وقد استهل نبينا عليه الصلاة والسلام حجه بالتوحيد، كما في حديث جابر: «وأهله رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتوحيد فقال: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك»[4]، وطالما جاء التأكيد والتذكير بإخلاص العبادة لله تعالى في الحج، كقوله تعالى {وَأَتِمُوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةِ لِلَّهِ} [البقرة: 196]، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «من حج لله فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه»[5].

وورد عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: «اللهم هذه حجة لا رباء فيها ولا سمعة»[6].

ثم إن الحج تسليم للنصوص الشرعية، وانقياد وإنذعان للوحبيين، وكان عمر الفاروق رضي الله عنه يقول عن الحجر الأسود: «إني أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولو لا أني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبلك ما قبلتك»[7].

وقد علق الحافظ ابن حجر على مقالة الفاروق فقال:

«وفي قول عمر هذا التسليم في أمور الدين، وحسن الاتباع فيما لم يكشف عن معانها، وهو قاعدة عظيمة في اتباع النبي صلى الله عليه وسلم فيما يفعله، ولو لم يعلم الحكمة فيه»[8].

ومن معالم الإيمان والتوحيد في فريضة الحج: تعظيم شعائر الله عز وجل، فمعاني الإجلال لله تعالى والتوقير لمناسكه ظاهرة بینة، حيث قال عز وجل: {ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ} [الحج: 32].

وجاء في الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إن هذه الأمة ما تزال بخير ما عظموا هذه الحرمـة (يعني الكعبة) حق تعظيمها، فإذا ضيّعوا ذلك هلكوا»[9].

ومن أظهر منافع الحج: تحقيق تمـايز أهل الإيمان بمخالفة أهل الكتاب والأوثان، ومفارقة رسوم الجاهلية وأحوالها ظاهراً وباطناً، ومجانبتها وإهانتها.

وأكـد ابن القيم هذه المفارقة بقوله: «استقرت الشريعة على قصد مخالفـة المشركـين لاسيما في المناسـك»[10].

وأبطل نبيـنا خاتـم المرسـلين صلى الله عليه وسلم عـوائد الجـاهـلـية كما في خطـبة حـجـة الـودـاع فقال: «كـلـ شيءـ منـ أمرـ الجـاهـلـيةـ تحتـ قـدـميـ مـوضـوعـ»[11].

قال ابن تيمـية مـقرـراً هذا المـعلمـ: «إنـ كـلـ ماـ عـظـمـ بالـبـاطـلـ مـنـ مـكـانـ، أوـ زـمـانـ، أوـ شـجـرـ، أوـ بـنـيـةـ؛ يـجـبـ قـصـدـ إـهـانـتـهـ، كـمـ تـهـانـ الأـوـثـانـ الـمـعـبـودـةـ»[12].

والحاصل أنـ فيـ الحـجـ منـ الأـسـرـارـ الـجـلـيلـةـ، وـالـحـكـمـ الـعـظـيمـ، وـالـمـنـافـعـ الـكـثـيرـ ماـ لـاـ يـحـصـىـ؛ فـفـيهـ تـحـقـيقـ الإـقـبـالـ عـلـىـ اللهـ وـحـدـهـ، وـتـرـسـيـخـ أـنـ يـكـنـ اللـهـ وـحـدـهـ – لـاـ إـلـهـ إـلـاـ هوـ – هوـ الـمـعـبـودـ وـالـمـقـصـودـ، وـتـعـظـيمـ اللـهـ وـإـجـالـهـ، وـتـعـظـيمـ شـعـائـرـ اللـهـ وـحـرـمـاتـهـ، وـمـجـانـبـةـ سـبـيلـ أـهـلـ الـجـاهـلـيـةـ، وـلـزـومـ السـنـةـ وـالـدـلـيـلـ، وـتـحـقـيقـ الـاتـبـاعـ وـالـتـأـسـيـ بـسـيـدـ الـأـنـامـ عـلـيـهـ الـصـلـاـةـ وـالـسـلـامـ.

منـ أـجـلـ ذـلـكـ شـرـقـ الـمـلـاحـدـةـ وـالـزـنـادـقـ بـهـذـهـ الشـعـيرـةـ، فـأـجـلـبـواـ عـلـيـهـ بـخـيـالـهـ وـرـجـلـهـ، وـكـادـواـ لـهـذـاـ الرـكـنـ الـعـظـيمـ بـالـلـسـانـ وـالـسـنـانـ، وـبـالـمـحـادـةـ وـالـأـرـتـيـابـ، وـبـالـعـتـرـاضـاتـ وـالـشـبـهـاتـ، وـبـالـشـكـوكـ وـالـأـرـتـيـابـ، وـبـالـجـدـ وـالـهـزـالـ.. لـكـنـ كـيـدـ الـكـافـرـيـنـ فـيـ تـبـابـ، فـالـعـاقـبـةـ لـلـتـقـوىـ وـلـلـمـتـقـينـ.

وـمـنـ ذـلـكـ مـاـ صـنـعـهـ أـبـرـهـةـ عـنـدـمـاـ بـنـىـ الـكـنـيـسـةـ «ـالـخـسـيـسـةـ»ـ – كـمـاـ وـصـفـهـاـ اـبـنـ كـثـيرـ – وـالـمـسـمـاـ بـ«ـالـقـلـيـسـ»ـ مـنـ أـجـلـ أـنـ يـصـرـفـ النـاسـ عـنـ حـجـ بـيـتـ اللـهـ الـحـرـامـ، فـجـاءـ رـجـلـ مـنـ أـهـلـ مـكـةـ، فـأـحـدـثـ فـيـهـ، فـغـضـبـ أـبـرـهـةـ، وـسـارـ بـجـيـشـهـ لـيـهـمـ الـكـعـبـةـ، فـأـهـلـكـ اللـهـ عـاجـلـاـ غـيرـ آجـلـ. وـأـمـاـ «ـالـقـلـيـسـ»ـ فـأـمـسـتـ أـثـرـاـ بـعـدـ عـيـنـ، وـانـمـتـ آثـارـهـاـ فـيـ عـهـدـ الـخـلـيـفـةـ الـعـبـاسـيـ «ـالـسـفـاحـ»ـ[13].

وـمـنـ ذـلـكـ الـإـلـفـ وـالـخـبـالـ: أـنـ الـمـلـاحـدـةـ وـالـمـنـجـمـيـنـ لـمـ هـالـهـ شـأـنـ الـبـيـتـ الـعـتـيقـ وـحـفـظـهـ مـعـ تـعـاقـبـ الـقـرـونـ، وـلـحـقـتـمـ الـحـيـرـةـ بـسـرـ اـنـجـذـابـ الـفـلـوـبـ إـلـىـ هـذـهـ الـكـعـبـةـ، وـكـوـنـهـاـ مـثـابـةـ لـلـنـاسـ وـمـهـوـيـ لـلـأـفـئـدـةـ.. لـمـ هـالـهـ ذـلـكـ زـعـمـوـاـ أـنـ تـحـتـ الـكـعـبـةـ بـيـتـاـ فـيـهـ صـنـمـ يـبـخـرـ وـيـصـرـفـ وـجـهـهـ إـلـىـ الـجـهـاتـ الـأـرـبـعـ لـيـقـبـلـ الـنـاسـ إـلـىـ الـحـجـ»ـ[14].

وـهـذـاـ التـعـلـيلـ مـحـضـ اـفـتـراءـ، وـكـذـبـ صـلـعـاءـ، وـأـضـحـوـكـةـ الصـبـيـانـ.

وـالـتـهـكـ بـشـعـائـرـ الـحـجـ مـنـ طـرـائقـ الـزـنـادـقـ الـمـنـافـقـيـنـ، كـمـاـ وـقـعـ مـنـ عـلـيـ بنـ يـقطـيـنـ الـذـيـ سـخـرـ بـالـطـائـفـيـنـ بـالـبـيـتـ الـحـرـامـ، وـشـبـبـهـمـ بـالـبـقـرـ، فـأـمـرـ الـخـلـيـفـةـ الـعـبـاسـيـ الـهـادـيـ بـقـتـلـهـ، ثـمـ صـلـبـ لـأـجـلـ زـنـدقـتـهـ سـنـهـ 169ـهـ[15].

وـإـبـرـادـ الـعـتـرـاضـاتـ وـالـشـكـوكـ عـلـىـ مـنـاسـكـ الـحـجـ مـسـلـكـ قـدـيمـ لـأـوـلـئـكـ الـمـلـاحـدـةـ، فـقـدـ أـشـارـ اـبـنـ قـتـيـبـةـ (ـتـ 276ـهـ)ـ إـلـىـ مـقـاـلـةـ

للملاحدة: إن كانت الخطايا سودت الحجر الأسود، فقد ينبغي أن يبيّض لما أسلم الناس.

ثم أجاب عنها ابن قتيبة فكان مما قاله: «فَمَنِ الْذِي أَوْجَبَ أَنْ يُبَيِّضَ بِإِسْلَامِ النَّاسِ؟ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى لَفَعَلَ ذَلِكَ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَجِدَ...»[16].

ومن المكر الكبار الذي يُراد به صد الناس عن الحج إلى بيت الله الحرام ما جاء في كتب الرافضة المعتبرة - عندهم - من تحضير كربلاء على الكعبة، وأن زيارة كربلاء وقبر الحسين يوم عرفة أفضل من سائر الأيام[17]!

وكذا ما وقع من القبورية وغلاة الصوفية، فإن من القبورية من يعتقد أن زيارة المشاهد التي على القبور أفضل من حج البيت الحرام، ويسمى زيارتها الحج الأكبر[18]! ومنهم من سوّغ الحج إلى معابد المشركين في الهند! أو يجعلون قبر الولي بمنزلة عرفات، وربما فضلوا زيارة واحدة لقبر الشيخ على عدة حجات إلى بيت الله الحرام[19].

وأما الصوفية الغلاة فإن الحلاج زعم أن من فاته الحج فإنه يبني في داره بيّناً يطوف به كما يطوف ببيت الله الحرام، ويتصدق على ثلاثة يتيمًا، وقد أجزأه عن الحج، ولذا قُتل الحلاج بسيف الشرع سنة بضع وثلاثمائة من الهجرة[20].

وفي هذه السنوات الأخيرة أحدث زنادقة المتصوفة الحج إلى ضريح أحمدو بامبا في السنغال، ويسمون تلك البلدة «مكة الإفريقية»! كما أحدثوا الحج إلى كازاخستان، وسموه: الحج الأصغر، وأطلقوا عليه «مكة الثانية»، وعللوا الحج إليها تركستان لأجل مشقة الحج إلى مكة وكثرة النفقه[21].

وأقرب من ذلك ما فعله الباطنية الملاحدة حيث تأولوا الحج إلى بيت الله الحرام بالسفر إلى شيوخهم[22]، وكذا من يزعم سقوط الحج عنه مع قدرته عليه، لأن الكعبة تطوف به[23]، ونحو ذلك من تأويلات باطنية، وأحوال شيطانية.

وقد ساق بعض المشككين - من البحرين - اعترافات على شعيرة الحج، وبعثوها إلى العلامة محمد رشيد رضا سنة 1331هـ، فأجاب عنها بأجوبة محررة متينة[24].

ومما يحسن ذكره هنا أن هذه الاعترافات وسائل الأسئلة الواردة في فتاوى رشيد رضا والجواب عنها، تكشف طرقاً من التحديات الفكرية وتاريخها، والإشكالات والنوازل العقدية التي استفحلت آنذاك، كالإلحاد الشيعي، والتتصير، والاتجاه الإصلاحي العقلاني، والتتصوف الغالي.. إلخ.

والذي يعنينا هنا أن نكتفي ببعض ما سطره رشيد رضا في رد زعمهم أن تقبيل الحجر الأسود من بقايا الوثنية، حيث قال رحمة الله:

«ما ذكره السائل في تقبيل الحجر الأسود قد سرى إليه من شبّهات النصارى والملاحدة الذين يشكّون المسلمين في دينهم بأمثال هذا الكلام المبني على جهل قائليه من جهة، وسوء نيتهم من جهة أخرى، ومن عرف معنى العبادة يقطع بأن المسلمين لا يعبدون الحجر الأسود، ولا الكعبة ولكن يعبدون الله وحده باتباع ما شرعه فيهم»[25].

ولما قدم الشيخ سليمان بن سحمان إلى البحرين سنة 1333هـ، واطلع على أجوبة رشيد رضا على هؤلاء الحيارى أثني عليها خيراً، وتعقب هذه الأجوبة بالزيادة والبيان، وجزم أن هؤلاء زنادقة، وألف في ذلك رسالة مفردة مطبوعة بعنوان: «إقامة الحجة والدليل وإيضاح المحجة والسبيل على ما موه به أهل الكذب والممین من زنادقة أهل البحرين».

وقرر - رحمة الله - أن منشأ ضلال هؤلاء الزنادقة هو الإعراض عن كتاب الله وسنة رسوله، والإكباب على كتب الملاحدة وما تلقوه من شبه النصارى.

وأما تشكيكهم بالسؤال عن الحكمة من تقبيل الحجر الأسود، أو رمي الجمار ونحوه.. فهذا من فرط جهلهم فلا يجب أن تكون الحكمة بأسرها معلومة لجميع البشر[26].

ومقصود أن هذه الزندقة والإلحاد - في شعيرة الحج - تعود إلى النقض وإفساد أصل الدين وركنيه: ألا نعبد إلا الله وحده، وألا نعبد إلا بما شرعه رسوله صلى الله عليه وسلم، فشياطين الإنس والجن يزبّون عبادة الأولياء والأئمة كما هو عند الصوفية الغلاة والرافضة، ويشرعون ما لم يأذن به الله من البدع والمحظيات.

ومع ذلك الكيد المتطاول والمكر المتلاحم إلا أن سعيهم في ضلال؛ فما زال البيت الحرام مهوى للأفقاء ومثابة للناس وأمناً، بل تضاعف عمّاره وحجاجه من كل حدب وصوب، ومن كل فج عميق.

قال ابن تيمية رحمه الله: «بل وجود مكة مما يدل على القادر المختار، وأنه سبحانه يخلق بمشيئته وقدرته وعلمه، كما قال تعالى: {جَعَلَ اللَّهُ الْكَبْرَى الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَاماً لِلنَّاسِ وَالشَّهْرُ الْحَرَامُ وَالْهَدْيُ وَالْقَلَائِدُ ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [المائدة: 79]. قال ابن عباس: «لو ترك الناس الحج سنة واحدة لأطبق الله السماء على الأرض». ولهذا كان حج البيت كل عام فرضاً على الكفاية، كما ذكر ذلك الفقهاء من أصحاب الشافعي».[27]

[1] «لطائف المعارف» لابن رجب ص332، وينظر: «زاد المعاد» لابن القيم 1/51.[2] ينظر: «جامع المسائل» لابن تيمية 5/182، و«اقتضاء الصراط المستقيم» 2/830.

[3] «اقتضاي الصراط المستقيم» 2/830.

[4] رواه مسلم (1218).

[5] رواه البخاري (1521) ومسلم.

[6] قال الألباني: «رواه الضياء بسنده صحيح»؛ «مناسك الحج والعمرة» ص15، وينظر: «فتح الباري» لابن حجر 3/381.

[7] رواه البخاري (1597).

[8] «فتح الباري» 3/463.

[9] قال ابن حجر: أخرجه أحمد وابن ماجه وسنده حسن.

[10] «تهذيب سنن أبي داود» 3/309.

[11] رواه مسلم (147).

[12] «اقتضاي الصراط المستقيم» 1/477.

[13] ينظر: «البداية» لابن كثير 2/170، و«قاعدة عظيمة» لابن تيمية ص101.

[14] ينظر: «الصفدية» لابن تيمية 1/220، و«الرد على المنطقين» ص502.

[15] ينظر: «تاريخ الطبرى» 4/595.

[16] «تأويل مختلف الحديث» ص349، وساق ابن حجر أجوبة أخرى عن هذا الاعتراض كما في «الفتح» 3/463.

[17] ينظر: «أصول الشيعة الإثنى عشرية» لناصر القفاري 453/2-477.

[18] ينظر: «اقتضاء الصراط المستقيم» 2/739.

[19] ينظر: «الرد على البكري» لابن تيمية، ت: السهلي ص306.

[20] ينظر: «جامع الرسائل» لابن تيمية 1/189، و«مجموع الفتاوى» لابن تيمية 35/108.

[21] ينظر: «مجلة الصوفية الإلكترونية»، العدد السادس.

[22] ينظر: «بيان تلبيس إبليس الجهمية» لابن تيمية 8/367، و«التدمرية» ص160.

[23] ينظر: «مجموع الفتاوى» لابن تيمية 11/403.

[24] ينظر: «فتاوى محمد رشيد رضا» 1214/4-1233.

[25] ينظر: «فتاوى محمد رشيد رضا» 1217/4.

[26] ينظر: «إقامة الحجة والدليل» لابن سحمان ص3,7.

[27] «الرد على المنطقيين» ص505، بتصرف يسير.

مجلة البيان العدد 340

المصادر: